

أثر العرب في آداب الفروسية

سواء جرت الأمور في طريق العلاقات التجارية أو ظل الروابط السياسية ، وسواء أسفرت تلك العلاقات عن حروب أو محالفات ، فما أكثر ما نشأ بين الشرق والغرب من دواعي الصلة ولوان المبادلة منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر . فمسلمو الأندلس والمسيحيون مثلاً ، لم يمسكوا لحظة عن الاتصال فيما بينهم ، فعرف بعضهم بعضاً ، وعاشوا على نحو ما نفس الحياة . . حياة البطولة أو حياة البطالة . . حياة السلام أو حياة القتال . ومن خلال فترات ذلك الصراع الطويلة التي كان الاستبسال فيها يتراوح بين الجانبين بصور متكافئة ، ومن تلك المهادنات التي كانت تتيح للفريقين أن يفرغا ردها من الزمن لأعمال الفكر والصناعة تولد تقدير متبادل ظل ينمو مع الأيام . لقد كان مما يروق للعرب أن يشيدوا بشجاعة من أحاط بهم من المسيحيين الذين كانوا يطلقون عليهم دائماً اسم « الفرنجة » . . أيا كانت بلدهم . . كما لم يلبث « الفرنجة » حتى « فهموا حقيقة الإسلام ، وعرفوا في المسلمين شعوباً تفوقهم تحضراً »^(١) .

ولا عجب إذن أن يشتد إقبال الفرنجة – وهم الذين أخذوا عن

(١) لافيس (Lavissee) ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٦ .

الشرقيين « كثيراً من مبتكراتهم وعاداتهم »^(١) — لا عجب أن يقبلوا على استعارة بعض أساليب الفروسية وآدابها المترفة ، مما يلائم عبقريتهم خير ملاءمة وينسجم معها . أو ليس من الحق أن نتوسع في تطبيق ملاحظة « فوريل » الجوهريّة التالية حتى تشمل على الأقل إقليم « السبتياني » (La Septimanie) — أى كل هذه المنطقة الواقعة في جنوبي « غالة » بين البحر الأبيض المتوسط و « السيفين » ، وبين جبال البرانس ونهر الرون ؟ — فلقد ظل هذا الإقليم كله أو بعضه ، زمناً طويلاً تحت سيطرة العرب^(٢) ، يقول فوريل : « إن من الوقائع التي بلغت من التأكيد مبلغاً يسترعى الانتباه ، ذلك النوع من الود والألفة الاجتماعيّة الذي نشأ منذ وقت مبكر بين العرب وأهل أسبانيا ، ولم تزده الأيام إلا نمواً ، وتلك السباحة التي لان بها الأخيرون لسمو الأولين ، فاعتادوا كريم طباعهم ، وتبنوا لغتهم ، وآداب عيشهم ، بل ونهج خيالهم^(٣) » . وقد يبدو هذا القول زعماً جزافاً ، ولكنه يستند إلى وقائع مادية ، كظهور صناعات عربية شتى في جنوبي فرنسا ، ودخول بعض أساليب

(١) لافيس ورامبو : التاريخ العام ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٦ .

(٢) بعد أن سيطر العرب على أسبانيا ، دخلوا للمرة الأولى إقليم السبتياني دخول للغزاة سنة ٧١٥ . وفي سنة ١٠١٩ حاولوا بلا جدوى أن يستردوا مدينة « ناربون » . وفي خلال تلك الفترة التي تقع بين هذين التاريخين وتبلغ قرابة ثلاثمائة سنة ، لم يكده ينقطع القتال بين الغزاة من مسلمي أسبانيا وأهل ما دون جبال البرانس .

(فوريل : تاريخ الشعر البروفنسي ، الجزء الأول ، ص ٤٢٠) .

(٣) فوريل (Fauriel) : تاريخ غالة الجنوبية ، الجزء الثالث ، ص ٥٩ .

الزراعة وآلاتها ، ووجود طائفة من الكلمات العربية — ولا سيما مصطلحات الفروسية منها — في اللغة البروفنسية ، هذا إلى شيوخ عادات عربية بعينها هنالك ، وما يوجد من تشابه بين الأدبين في بعض الوجوه ، إلى غير ذلك من تلك الحفلات الاجتماعية والمجالس الأدبية والتناقض الشعرية . . إلخ . ونستطيع أن نتبين صور هذا التقارب ومظاهر تلك الألفة الاجتماعية في كتاب « تاريخ الشعر البروفنسي » ^(١) للأستاذ « فورييل » حيث أجاد عرضها وتفصيلها في ذلك المؤلف الواعي حقا ، والذي نحيل عليه من يتغنى المزيد ، ونكتفي بأن نورد هنا خلاصته ، مذكرين بأن جنوبي فرنسا كان مهد نظام الفرسان في الغرب ، فهو يقول :

« هناك ما يدعونا إلى الحكم بأن العرب الأندلسيين قد أثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيرا فعالا في الحضارة الأخلاقية والاجتماعية التي انتشرت في جنوبي فرنسا ، ولا سيما ذلك الجانب المسيطر المتميز من تلك الحضارة وهو ما يختص بمبادئ الفرسان وآدابهم ونظمهم » ^(٢) .

ولكى نقف على الأثر العربي في روح الفروسية ونقدّر مدى تغلغله — لا في جنوبي فرنسا فحسب ، بل في فرنسا بأكملها وفي الأمم المسيحية جمعاء — فإنه يكفي أن نلقى نظرة على « قصص الفروسية » . ومن المعروف

(١) فورييل : تاريخ الشعر البروفنسي ، الجزء الثالث ، ص ٣١٢ وما يليها .

(٢) فورييل : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٧ .

أن « قصص الفروسية » كانت في العصور الوسطى هي الغذاء الروحي الوحيد للأشراف بل ولسواد الشعب أيضاً ، وكانت مرجع المقاتلين الذين اتخذوا من أبطالها قدوة لهم ، وراحوا يستمدون منها دروس العزة والفضل والأدب . على أن « تاريخ توربان » (Turpin) — وهو الذي سبق قصص الفروسية جميعا — يؤكد (في الفصل العشرين) أن « شرلمان » قد تقلد مرتبة الفروسية على يد جالافرون إمبر (Galafron Emir) ذلك الأمير الأندلسي الذي كان سيد كوليتر (Coletor) في البروفانس ؛ بينما تشهد إحدى الأقصوصات الشعبية في القرن الحادي عشر بأن صلاح الدين — وهو بطل شديد البأس ومسلم عظيم الولاء — قد قلده الأمير « هوج » أمير طبرية ، مرتبة الفروسية . ونرى في النص الألماني لقصة برسفال (Perceval) أن أحد الفرسان المسيحيين لم يتردد في الالتحاق بخدمة « باروك دي بلدك » (Baruc de Baldac) أي « خليفة بغداد »^(١) . وكذلك كان شأن « برناردى كاريو » (Bernard de Carpio) أقدم أبطال أسبانيا المسيحية — فإن « بطولته لا تكاد تتجلى إلا في جيوش الأندلسيين العرب . . . كما تنسب أقدم أغاني الأسبان وأوليات قصائدهم من القرن الثاني عشر — من مثل قصيدة « السيد » — تلك الآداب الفرسانية

(١) صحيفة الديبا (Journal des Débats) ٢١ يناير ١٨٣٤ ، مقالة س . و .

دى شليجل (S.W. de Schlegel) .

للعرب « (١) . ثم يقول رينو : « بل وكان الأندلسيون العرب يشتركون فيما يخوضه المسيحيون من قتال ونزال في كل مكان من الأرض تلوح منه أكاليل الغار » (٢) . وبديهي أن تلك الأشعار لم تنزل العرب تلك المنزلة إلا لما رآه أصحابها من جدارتهم حقاً بمطاوله الصناديد من شخصيات الأساطير . ولكن ، هل كان الشعراء يسمعون — عندما رفعوا من قدر الفرسان العرب وعندما جعلوا منهم نماذج للنبل والكرم — إلى رسم صورة صادقة للمقاتل العربي ؟ أم أن ذلك لم يتجاوز من قريحتهم خيالاً يهدف إلى إثارة حمية الفرسان المسيحيين وحشهم على الاقتداء ببطولات واقعية أو وهمية قام بها غرماؤهم ؟ ومهما يكن الجواب عن هذا السؤال ، فإن النتيجة واحدة ؛ وهي أن قارئ قصص الفروسية أو سامعها ، والراوي أو رب القصر الذي كانت تروى فيه ، والقوم من شريف إلى صعلوك — كانوا جميعاً مؤمنين ببسالة أعدائهم وسموهم ، وكانوا يروضون أنفسهم على أن يلحقوا بهم أو يفوقهم في الكرم وفي الشجاعة .

وأبلغ عبرةً من تلك الأغاني والأقاصيص ، وأوثق دلالةً من معانيها ، أمثلة المروءة التي ضربها العرب في كل مناسبة وفي كل مكان لمعاصريهم من أهل الغرب . وأى هذه الأمثلة عسانا نذكر ؟ ومن أى عصر نسوقها أو من أى بلد نتخيرها ؟ أمن أسبانيا (حوالي عام ٧٥٥)

(١) سيسموندى : في أدب جنوبي فرنسا . الجزء الأول ، ص ٢٧٠ وما يليها .

(٢) رينو (Reinaud) : غزوات الأندلسيين في فرنسا ، ص ٣١٤ .

حيث نشهد الوالى عبد الملك يطعن ابنه الفتى برمحه إذ رآه يتقهقر أمام جيش يفوق عدد جيشه ؟^(١) . أم من موقف عبد الرحمن الثالث النبيل إذ يؤمن عدوه « سانش » أمير « ليون » حتى يتمكن من الذهاب إلى قرطبة لاستشارة الأطباء العرب .. فى حين يستضيف الملك « بطرس القاسى » ملك « قشتالة » عام ١٣٦٠ ، أباسعيد ملك غرناطة فتعجبه جواهره التى كان يتحلى بها فيقتله غدرا وهو فى ضيافته ليستولى عليها ؟^(٢) .

أم من قبل ذلك بقرن من الزمان — عام ١٢٨٠ — ؟ حيث يتخلى عن الملك « ألفونس الحكيم » رعاياه ، ويستغيث يعقوب ملك مراكش ، فيعبر إليه يعقوب البحر ويلتقى به فى « زارا » ؛ وفى ذلك اللقاء المشهود ، يريد الأمير القشتالى التعس أن يتزل عن منزلة الصدارة والشرف للملك الذى أقبل لتجده ، فيقول له يعقوب : « إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوباً على أمرك . . . ولقد أتيتك لأعينك على تأديب عاق ، فتى أدبت هذا الواجب ، وأصبحت أنت سعيدا قويا ، نازعتك كل شىء وناصبتك العداء من جديد »^(٣) .

أم عسانا نتخير تلك الأمثلة من مصر ؟ . . . فنعيد إلى الذاكرة

(١) لويس فياردو (L. Viardot) : تاريخ العرب والأندلسيين، الجزء الثانى ،

ص ١١٨ و ١٩٦ و ٢٧٨ .

(٢) جوستاف لوبون (G. Le Bon) : حضارة العرب، ص ٣٨٧ وما يليها .

(٣) فلوريان (Florian) موجز تاريخى عن الأندلسيين ، ص ٧٧ انظر فى

الكتاب ذاته لمحات أخرى من هذا القبيل ص ٧٦ و ٨٥ الخ .

موقف نور الدين حين امتنع عن انتهاز فرصة موت « بودوان » لاستعادة « عسقلان » قائلا : « إنى لو فعلت ذلك لأهدرت الإنسانية واستهنت بآلام شعب يبكى مولاه ، ولأخللت بشرفى الشخصى إذ أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم »^(١) .

ولعانا حين نقابل ما اقترفه « ريتشارد قلب الأسد » عندما دفعه جبهته إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا (سنة ١١٩١) - رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحرثهم^(٢) - بما أتاه صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس (سنة ١١٨٧) ، فلم يقنع بمنح أهل المدينة التى استردها حياتهم وحرثهم ، بل أمر بتوزيع الإعانات والهبات على المعوزين من المسيحيين ، لعانا حين نعقد تلك المقارنة نرى مثلاً واضحاً لما نحن بصددده . ثم يجرنا هذا إلى الحديث عن معركة يافا وصلاح الدين يخوض غمارها ضد ريشار ، فيبصره صلاح قد فقد حصانه فيبعث إليه جوادين كريمين إذ يرى أنه لا يليق بالمحارب المغوار أن يقاتل راجلاً^(٣) . . على أنه ما الداعى لحشد مثل تلك الأمثلة والمؤرخون جميعاً يقررون أنه « لا حاجة بأولئك الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية إلى أن نعرفهم

(١) ماران (G. Marin) : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا . الجزء الأول ، ص ٧٨ و ٩٥ .

(٢) ماران : المرجع السابق . الجزء الثانى ، ص ٣٠٦ و ٣٠٧ . ستانلى لين بول (Stanley Lane Poole) : صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس ص ٣٠٦ .

(٣) المرجع الأخير ، ص ٣٥٣ .

أن جميع محامد الحضارة — من علو النفس والتسامح والمروعة الحقيقية والأدب — كانت في أثناء تلك الملاحم إلى جانب العرب «^(١) ؟ على أن ذلك لن يمنعنا من أن نورد فيما يلي هذه القصة الطريفة :

كان ألفونس الثامن — الذي اتخذ فيما بعد لنفسه لقب الإمبراطور — يحاصر سنة ١١٣٩ قلعة « العريجة » . وقد جمع وإلى قرطبة بعض الفرق لنجدة تلك الحامية ، ولكنه بدلا من أن يهاجم جيش قشتالة الذي كان يفوق جيشه عددا ، رأى أن من الأسر عليه أن يضطر ذلك الجيش إلى رفع الحصار باستدراجه إلى أمر آخر ؛ فدار في حذر حول معسكر المسيحيين وأمعن السير حتى بلغ أسوار طليطلة ، حيث كانت الملكة « بيرانجير » (Berenguela) تقبع في عقر دارها تعوزها وسائل المقاومة . فخطر لها وهي في تلك الضائقة أن ترسل إلى القائد العربي من يهيب به أن لو كان يريد مقاتلة المسيحيين فليذهب إليهم تحت أسوار « العريجة » حيث ينتظره زوجها ، وأما أن يشن حربا على امرأة ، فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه . ونجحت خطتها ، واستسلم القائد العربي المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب ، فاعتذر عن خطئه ، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله . فطلعت عليهم « بيرانجير » وسط حاشيتها فوق الأسوار ، ومر أمامها الفرسان العرب وهم آخذون في الرحيل وكأنهم في مباراة . بينما كان — في هذا الوقت نفسه ، وفي أثناء هذا

(١) المرجع الأخير ، ص ٣٠٧ .

الاحتفال الودى - قد استولى ألفونس على قرية العريجة « (١) .
أفليس من الحق إذن - بعد كل هذا - أن نؤكد أن العرب قد
أثروا - من حيث حضارتهم وبما ضربوا من أمثلة - تأثيراً موففاً في الروح
والعواطف الفرسانية (٢) . . تأثيراً كان كله من نسج دقيق رقيق أنيق ؟ . .
ومن فرط ما لاحظ الفرسان أن أولئك الذين كانوا يلقبونها
« بالكفار » - ممن كانت الكنيسة تأمر بمقتلتهم دون هوادة - إنما هم
أبطال وكرام في معاملة الخصم ، سرت إليهم الرأفة ، وأصبحوا أشد
إنسانية . وهكذا تعلم أولئك الفرسان في مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء
كبار النفس في مخاصمة العدو ، مسيحيًا كان أو وثنيًا . لقد رأوا كيف
يرعى العهد أولئك « الذين لم يتلقوا المعمودية » فتعلموا أن يصونوا جميع
عهودهم ، لا تلك العهود التي قطعوها رسمياً وأقسموا على الوفاء بها فحسب .
ورأى الفرسان لدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف للثروة والغنى ، ولمسوا
فيضا من كرم ضيافتهم ، وجودا لم يتخيلاوا مثله ، فتعلموا أن يغدقوا في
صدقاتهم وأن يسخروا في هباتهم . ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء (٣) بل
ولحرمة أقلهن شأنا - أو لم تصبح بعض الجوارى أميرات ؟ - فتعلموا

(١) لويس فياردو : المرجع المذكور .

(٢) فوريل : المرجع المذكور . الجزء الثالث ، ص ٤٣٣ .

(٣) سيسموندى : المرجع المذكور ، ص ٩٦ .

جوستاف لويون : حضارة العرب ، ص ٤٢٨ .

الشهامة والرقّة لا نحو السيدات النبيلات فحسب ، بل نحو النساء جميعاً على اختلاف طبقاتهن . وهكذا تهذبت أخلاق العصور الوسطى الجافية وتطورت عندما اتصلت بالعبرية العربية ، فلانت ولطفت ورقّت وممّحت^(١) . وذلك — في عبارة موجزة — هو أثر العرب في الفروسية الغريبة .

ويذهب بعض الكتاب إلى أبعد من هذا — وهم في رأينا مسرفون — إذ يؤكدون أن الفروسية برمتها — منظمة وأخلاقاً — عربية الأصل . ولو ذهبنا نحن مذهبهم ، لبانت الفروسية الغريبة نسخة من منظمة مماثلة كان يعتز بها العرب منذ عصور خالية ندت عن التاريخ المأثور ، وذلك موضوع جدير بالتمحيص .

(١) بارتيلمي سانتيلير : محمد والقرآن .